نقد وتقريض

لرسالة « الوضع الحاضر في جبل عامل »

بقلم الاستاذ محمد علي كمال الدين

علينا حديثا مطبعة العرفان العامرة في صيدا **طلعت** رسالة جميلة عنوانها « الوضع الحاضر في جبل عامل » وهي تأليف العلامة الشيخ محمد جواد مغنيـــة وهي صغيرة من قطع الربع كان المؤلف موفقاً بانتقاء مواضيعهـا وتنسيقها وجمال اسلوبها وبالاخص وصفه المقتضب في ص ١٨ لجبل عامل المتدرج الى السماء وهو في احضان الطبيعة ثم وصف حيوية الطبيعة الماثلة في خضرة هذا الجبل الشامخ . ولقـد احسنت مجلة المعهد الغراء بنشرها لزيادة التعريف بالجبل خدمة للثقافة لاسيما واننا وجدنا المؤلف بالاضافة الى ما عرف عنـه وعن اسرته الكريمة من علم وفضل ، وجدناه صادق النيـة رائده الاخلاص في كل مواضيع الرسالة التي ذلل صعابهـا . تجلت صفة الاخلاص هـذه في بحثه عن الناحيتين السياسية والدينية وفي عرضه للحالة الاجتماعية واساليب الاصلاح .

على اننـا لا نرى مانعة جمع بين بروز هذه الصفة في رسالته وبين وجود ما يوحي الانتقاد تلبية لنداء الثقافة . وها نحن اولاء نعرض هاته النواحي للقراء :

١ — الناحية السياسية

كان موضع جبل عامل والنواب . من ص ٦—١٥ جميلا وصف فيه المؤلف النائب المفرط في الامانة المؤتمن عليها من قبل الامـة ثم شهر بانانيتـه وانصرافه الى الوقوع على مغنم يختطفه وهو في احضان صاحبه الفقير أو ينتزعه لقمـة حرام من فيه بحجة مساعدته على امر تورط فيه أو انتشاله من غمرة مظلمة دهمته . وانني لأغبط المؤلف على العطف البـادي في عباراته مما دل على سلامة نفسه وخلوص نيته . واني لأرجو أن يكون اخلاصه هذا مقربا لعهد نيابته عن اولئك الفقراء في ردهة البرلمان ولكن رجاؤنا هذا لا يمنع من بيان رأينـا انه اوغل في الخيال عند تعريف النائب والرعية بانهم اصبحوا رعاة بخلاف ما كانوا عليه قديما فان الحقيقة ان الحرب لا تزال سجالا بين الدمقراطية والارستقراطية وان الأمر لم يزل بيد الرعاة على الأغلب ولكنه بأيدي جماعة لا بيد فرد .

٢ — الناحية الدينية

كان المؤلف بارعا باختزال اربعة اسئلة تلوكهـا السنة المثقفين منحين باللائمة على علماء الدين وقد اطنب بالاجابـة عنها في ص ٣٦—٤٨ فوفق بالاجابة عن الاول منها : ان عذر العلماء عن عدم تشييد المدارس بجفوة كثير من المتدينين عن علماء الدين وعن الدين نفسه . وهذه حقيقة واضحة حملت تيارانها رسل الاستعمار الغربي واساليبه البارعة فعكرت المحيط على المتدينين .

اما السؤال الثاني المتضمن : اهمال العلماء الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد مهد للجواب عنه بقلة ذوقهم وجهلهم لعلم النفس وتاريخ الاديان ثم اضاف ان المنكرات انما تنبعث بالعواطف وانها لا يمكن ان تردع الا بعواطف مثلها معتبراً الدين خارجا عن دائرة العواطف لغرض التماس العذر للعلماء عن هذا الاهمال . في حين ان المحدثين اثبتوا ان الدين اقوى انواع العواطف ولذلك كان انجح الوسائل لكبح جماح العواطف الشريرة ولم يسجل في الجواب عن هذا السؤال إلا فقرة واحدة هي قيام العلماء بفصل الخصومات بين الناس ولكن هـــذه على ضآلتها لا تجـاوز الاحوال الشخصية للمتخاصمين غالبا وان اجاد العلمـاء ممارستها بامانـة ونزاهـة وسرعة واخلاص .

وقـد وفق في جوابه عن الثالث المتضمن : ان العلماء لم يماشوا روح العصر محافظين على بعض التقاليد التي لم يفرضها الدين والعقل والعرف : وقد كان حكيما في جوابه الايجابي بضرورة نبذ بعض التقاليد القديمة مماشاة لناموس التطور كيما تسير الامة مع قافلة العالم السائرة ولا يعقـد بها الزمان فتصبح في خبر كان . وايضا كان مصلحا في صراحته بضرورة اضافة بعض العلوم الحديثة وتغيير مناهج التعليم واصوله البالية .

اما السؤال الرابع وهو : ان العلماء مشتتون . فقد كان جوابه عنه مضطربا ذنتك انه استهله بالايجاب ثم حاول استعمال الرد بالنقض في انهم غير متباغضين وان كانوا مشتتين ثم يعود ليخطيء من يعلل هذا التشتت بانانية التزعم أو بانحياز بعض العلماء الى رجال السياسة وسرعان ما يكر مظهراً اسفه لوقوع بعضهم في شراك هؤلاء والبعض الآخر في شراك ذاك في حين ان الباحث المدقق يسهل عليه استنتاج نتيجة واحدة هي ان مجموع هذه الاسباب تكفي لتشتيتهم وتدابرهم .

وعلى الاجمال كانت اجوبته عن تلك الاسئلة اصلاحية ترضي نهامة الشباب المتطور فلا ارى موجباً لوصف السائلين بالحمق في ص ٣٧

٣ — الناحية الاجتماعية والاصلاحية

نرى ان اهم صفة يجب ان تحلى بها الاجتماعي هي الانغمار في الفكرة الاجتماعية والشعور بما يشعر به الناس من آمال وآلام . وقد رأينا هذه الصفة بارزة في ابحاث المؤلف الاجتماعية والاصلاحية فقد وجدناه في ص ١٨ ينغمر في موضوع (قرى مجهولة في لبنان لم تكتشف حتى الآن) واصفا قرية في جبل عامل بانها قبور للاحياء في بنياتها الضيقة بالفلاح وحيواناته مع خلوها من ملاجيء صحية ومأمورين صحيين للاسعاف في حين انها بعيدة جداً عن مراكز الاطباء وقد كاد المؤلف يذوب كمدا عند وصف الملاريا وفتكها الذريع ولولا امانة المؤلف واخلاصه الصريح لشككنا في وصفه اذ لا يخطر ببال العراقي وجود الملاريا هناك على هذه الصورة الفظيعة .

ووجدناه في ص ٢٦ يدعو الى اصلاح الجبل بوجه عام وقد ابدى اخلاصه وشعوره الاجتماعي باشارته الى ان هذه الدعوة لا يراد منها صدع الوحدة اللبنانية وانما المراد المساواة كي تتركز الوحدة .

ومن الادلة على سمو شعوره الاجتماعي ما ذكره في ص ٤٧ من محاولة تشكيل جمعية العلماء . ومجاراته لبعض العلماء على رغباتهم مع تنازله عن بعض شؤونه الخاصة وبالرغم من الفشل الذي اصابه لا يزال مصراً على التضحية في سبيل تشكيلها مراعاة للصالح العام . وآرى ان اهم شيء يستفيده القاريء من هذه الرسالة هي هذه الفكرة — فكرة تشكيل جمعية العلماء — فان الاوساط العلمية هنا لم تسمع عنها . وفي الامور الواضحة ان في امكان مثل هذه الجمعية . دون غيرها . ان تقوم باصلاح عام لا يقتصر على جبل عامل واهله بل يتناول جميع الامامية في الاقطار فان العلماء العاملين موضع ثقة لدى الاقطار عموما وليست الثقة منحصرة في تقواهم وصلاحهم بل تشمل اجتهادهم وآراءهم في الاصول والفروع مع العلم ان الناس في دور انقلاب فكري عام ومحنة ففي امكان هذه الجمعية ان تصحح بعض الاغلاط الشائعة عند العامة تقليداً وتبين المستحب من الواجب في الاصول والفروع وايضا تثبت آراءها في الحكومة والدولة والاوضاع الاجتماعية والمدنية والثقافية والمعاملات المالية والسلوك العام مع سائر اهل الملل والنحل وكذلك في الازياء والهندام وما الى ذلك . وبتعبير آخر في امكان علماء عامل ان يضعوا الخطوط الاساسية للاصلاح العام غير ان الذي يلوح لنا مما كتبه المؤلف الفاضل انه يريد الكمال لهذه الجمعية في بدء تشكيلها وهو محال ويا حبذا لو اكتفى بعض العلماء فاني أرى ان الظروف ملائمة والافكار مهيئة لقبول كل ما يزيل هذه الحيرة من أي جماعة علمية موثقة فقد اصبحت الشكوك والشبهات بحالة لا تطاق .

ودليل آخر على انغماره بما يشعر به الناس ما ورد في ص ٥٣ من دعوة الشباب العاملي الى تشكيل جمعية الشباب وقد دعا الى هذه الفكرة السامية بحرارة واخلاص .

ولا يفوتنا ان ننقد ما جاء في ص ٣٥ من المبالغة بانحطاط دراسة العامليين للغة في النجف مدعياً انهم يدرسونها على الاعاجم فان الحقيقة انهم يدرسونها مع آدابها على اساتذة عرب من عامليين وغيرهم . ثم يدرسون اصول الحديث على خليط من الناس غالبا .

هذا ما لحظناه في هذه الرسالة الاصلاحية من الآراء ولكننا وقفنا على بعض كلمات لا نتفق نحن والمؤلف فيها وها هي :— جاء في ص ١٨ (الف متر او فوقها بقليل) والصحيح أو تزيد . فان ذلك التعبير عامي عراقي ، وجاء في ص ١٩ (الاشواك الدامية) والصحيح : المدمية . وجاء فيها (ان اجعل مقري) والصحيح : مقرباً . وجاء في ص ٢٠ (عن